المحاضرة الرابعة عشرة: صورة الأنا في أدب الأخر والعكس

صورة الأنا في أدب الآخر تمثل إحدى أبرز القضايا في الدراسات الأدبية المقارنة والثقافية، حيث تبني الذات (الأنا) تمثيلاتها عن الآخر لتعزيز هويتها الثقافية أو النفسية أو الإيديولوجية، مستمدة من ثنائية جدلية ترتبط بالاستشراق والاستغراب والصورولوجيا. يعكس هذا الموضوع توترات تاريخية عميقة بين الشرق والغرب، أو بين الذات المهيمنة والمغايرة، حيث يصبح الأدب أداة لصياغة صور الآخر إما كتهديد أو إغراء أو نموذج مثالي لتبرير السلطة أو التمرد.

01- تعريف الأنا والآخر في السياق الأدبي والفلسفي

يُعرّف مفهوم الأنا كالذات الواعية التي تشكل هويتها عبر مقابلة الآخر، كما في فلسفة هيجل في "فينومينولوجيا الروح" حيث يعي الوعي نفسه من خلال اعتراف الغير في جدلية السيد والعبد، فالأنا لا تكتمل إلا بتمثيل الآخر كمغاير يعكس تفوقها أو ضعفها. في النقد الأدبي الحديث، طور إدوارد سعيد هذا في "الاستشراق" (1978) بوصف الأنا الغربية كيف تبني الشرقي كآخر غامض أو بربري لتعزيز مركزيتها الثقافية.

في السياق العربي، يرتبط الأنا بالوعي الإسلامي المبكر، كما في سقيفة بني ساعدة حيث انقسم المسلمون إلى مهاجرين (أنا مركزية) وأنصار (آخر داخلي)، مما أنتج ثنائية تتكرر في الشعر والرواية. أما الصورولوجيا (imagologie)، فهي علم مقارن يدرس كيف تخلق الأدب صورا متبادلة بين الأنا والآخر، كما في أدب الرحلة حيث "فهم الآخر كشف للذات".

02- التطور التاريخي لصورة الأنا في أدب الآخر

بدأ التطور في أدب الرحلة القديمة، حيث شكلت الأنا الراحلة (العربي أو الأوروبي) صورا عن الآخر المغاير جغرافيا وثقافيا، إيجابية في عصر التبادل (مثل ابن بطوطة) أو سلبية في الاستعمار. في الاستشراق الكلاسيكي (القرن 18-19)، رسم المستشرقون كالغوبينو صورة الشرقي ككسول أو شهواني لتبرير الاستعمار، محولين الأدب إلى خطاب إيديولوجي.

مع القرن العشرين، برز الاستشراق الجديد الذي يدرس الآخر نفسيا واجتماعيا لتعزيز الأنا الغربية، كما في روايات بول أوست أو سلمان رشدي حيث يصبح الآخر شرقيا مهاجرا في أدب غربي. في الأدب العربي، ردت الأنا الشرقية بصور مضادة، كما في

رواية "مهاجر ينتظر الأنصار" لمعمر حجيج حيث ينتظر المهاجر (أنا) الأنصار (آخر) في جدلية الهجرة. وفي النقد التراثي، سعى الاتجاه العربي لإثبات الأنا باستبعاد الآخر الغربي.

03- أشكال صورة الأنا في أدب الآخر:

1. الأنا المهيمنة في أدب الاستشراق والغرب

تبني الأنا الغربية الآخر الشرقي كغريب مغرٍ أو مهدد، كما في "ألف ليلة وليلة" عند الغربيين حيث يُروّج الغموض الشرقي، أو في روايات كونراد "قلب الظلام" حيث يُصوَّر الأفريقي كبربري لتعزيز الأنا الأوروبية. هذه الصورة تخدم السلطة الاستعمارية.

2. الأنا المضطهدة أو المتمردة في أدب الشرق

في الشعر العربي، تظهر الأنا الشعرية متوترة مع الآخر الغازي، كما في قصائد المدح التي تخترع آخرا داخليا لتعزيز الجماعة. في الرواية الجزائرية، تُصوَّر الأنا كمهاجر يواجه الغرب كآخر قاسٍ، كما في أعمال طيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال".

3. الأنا الهجينة في أدب الرحلة والمنفى

كما في رحلة محمد حسين هيكل "شرق وغرب"، تبني الأنا صورا حيوية عن الغربي (ديناميكي) مقابل الشرقي (حي) لتجديد الذات. في أدب المنجر الروائي، تذوب الثنائية في هوية هجينة.

4. الأنا النقدية في النقد المعاصر

في الاستغراب العربي، ينقد المفكرون الغيرية الغربية، معتبرين الأدب حوارا بين الأنا والآخر.

04- أمثلة تطبيقية مفصلة من النصوص الأدبية:

رواية "مهاجر ينتظر الأنصار" لمعمر حجيج

الراوي (أنا مهاجر) ينتظر الأنصار (آخر)، يعكس جدلية الهوية الجزائرية في المنفى، مع تحليل نفسي للتوتر.

رحلة هيكل "شرق وغرب"

يُصوّر هيكل الأمريكي كمادي مقابل الشرقي الروحي، كاشفاً عن أنا عربية متجددة.

"موسم الهجرة إلى الشمال" لطيب صالح

الراوي (أنا سوداني) يواجه الإنجليزي (آخر) في لندن، يمزج الإغراء بالانتقام.

المصادر والمراجع:

- فلسفة حوار الهويات: بين خصوصية الأنا وكونية الآخر "من سنة الاختلاف إلى ضرورة الائتلاف" جلاب فتيحة . https://asjp.cerist.dz/en/article/273239
- جدل الأنا والآخر في الخطاب الحضاري من الصدام إلى الحوار بخوش نرجس لواتي آمال . https://asjp.cerist.dz/en/article/187728 .